الحلقة الرابعة عشرة

(1) (منظور الميناء.. الحمالون ينزلون صناديق البضائع مـن السفينة.. تجار ينتظرون حملها في عرباتهم.. الأسير يتأمل البحر.. خالد يشرف على نقل الحقائب وأكياس الكتب الى السفينة بعد إنزالها من العربة.. حسن يجلس على إحـدى الحقائب، وخالد يدردش معه)

خالد: كنت أنوي أن أعطيك دروسا في التركية لـولا أن والـدك فاجأني بسفره.. ما كنت أدري أن استقالته قبلـت.. إبعـث الـي برسائل من لبنان تطمنني عن أحوالكم فتتقوى بالتركية..

حسن: أبي كان غاضبا من أخي محمود الذي ترك كليـة الطـب والتحق بالأزهر ليدرس الفقه والحقوق.. ولهذا عجـل بالـسفر.. أتعرف ماذا أهدتني شهربان ابنة علي باشا؟

خالد: ماذا أهدتك؟

حسن: أهدتني عدسة تكبر عشرين ضعفا.. نزلت الى الحديقة وكم فرحت حين شاهدت الزرازير الملونة على الشجر، ففي مثل هـذا الوقت تتكاثر، وتخرج النمال من أوكارها لتستمتع بالشمس.. انني وضعتها في هذه الحقيبة التي أجلس عليها.. هل تفتحها لي لأريك اياها؟

خالد: والدك هو الذي قفلها ومعه مفتاحها. ولكن ليس لدينا وقـت لهذا.. فرغت السفينة من شحنتها وحان الوقت لننقل حوائجنـا.. (يصل أحمد فارس وينتحي بالأسير يحادثه)

الشدياق: أريد أن أحدثك بأمر شغلني منذ الفجر.

الأسير: خير انشاء الله!

الشدياق: كلفت بأمر صعب مع رجل صعب.

الأسير: لا تقل لي الغ سفرك، فلا يجوز أن ننعزل عـن القـصر ونترك المنافقين يسرحون في حاشية السلطان.

الشدياق: لا، انه في أمر مباح لكل انسان، ولكنه معك لا يخلو من الطعان، فطبعك لا يوحي بالأمان..

الأسير: هات ما عندك!

الشدياق: جاءك خطيب لابنتك، طبعه سليم وخلقه قويم، وهو جدير أن يكون لابنتك الأليف الحميم.. انه قانع عزوف ولـيس كالـذي يرى من تبغضه فأحبها، أو تجفوه فكاف بها، أو تعـرض عنـه فتعرض لها، أو ترميه بحقيبتها فجن بها..

الأسير: لست أفكر في عريس لابنتي قبل أن تبلو من مرضها.

الشدياق: يا يوسف، أنت الذي شغلت أهم المناصب فـي الإفتـاء والقضاء وخرجت كبار الشخصيات والعلماء ينقصك شيء واحد! أعذرني ان قلت أنك لا تشعر بهموم ومشاكل الـشباب.. قمعـت أحاسيس شبابك بتحصيل العلم والجهد من أجل الناس والحياة.. لم أقرأ لك الاّ القليل النادر من شعر الغزل، فكيف تحـس بانـسان يتوهج قلبه بالحب لابنتك، ويصطفيها دون غيرهـا لتكـون لـه شريكة حياته؟.. لا يريد منك قبل أن تسافر الاّ أن تقـرأ الفاتحـة وتبارك رغبته في الإنتساب الى أسرتك!

الأسير: ولكن أين وكيف تعرف اليها؟

الشدياق: ألا تكفي النظرة العابرة أن توقظ حبا كبيرا في وجـدان إنسان؟ ليس له منها الاّ نظرة هوى وإشارة، ودمعة فـي العـين مثارة.. فأي خير في عزوبة شاب رزقه الله القوة والعافية، ولـم يتحمل أعباء الهوى دون أن يطمئن باله؟

الأسير: في أسرتنا يحدث الهوى بعد الزواج لا قبله.. وابنتي في وضع لا يصلح للحب ولا للزواج.. فلا تنبئني باسم هـذا الـذي يطلب يدها ولو كان إبن السلطان!.. فاصمت عن هذا الموضوع.. ان علي باشا قدم وابنته..

الشدياق: سأحدث علي باشا في هذا الموضوع، فهو على معرفـة بالشاب، وهو يعامل ابنته بانطلاق ويترك لها حرية الإختيار مما لا تحظى به حتى فتيات الغرب.. الأرحام يا أخي مـن الرحمـة اشتقت، والى المصاهرة انطلقت، وأنت يا يوسف لا تريد لابنتـك أن تعنس في بيتك، بل تريد أن تفرح بأحفادك (ينزل علي باشـا من العربة وتنزل شهربان بعده.. تسلم على أحمد فارس يدا بيـد، وتحني الرأس برشاقة للشيخ، ثم تذهب الى العربة التي نزلت منها لتوها حنيفة وفريدة وسناء.. تشم عطر الورد الجوري الذي أهدته لفريدة يوم العيد.. كانت ترتدي المعطف الذي حاكته لها وتـضع اللفحة والقبعة كاليشمق الصوفي علـى رأسـها وتلـف باللفحـة رقبتها)..

علي باشا: وداع الصديق موجع للقلب يا أبا محمود، وخـصوصا أن بحارا تفصل بيننا.. لا أدري اذا كنا سنلتقي ثانيـة! (يعانقـه، ويخلع ساعته الذهبية ويقلده اياها) حتى تذكرنا وتذكر طلابك في استنبول الذين يكنون لك أعمق المشاعر ويعـز علـيهم فراقـك! (يخرج صرة من العملة الذهبية) جئتك بمستحقاتك عن الترجمات

التي قمت بها لنظارة المعارف.. (يمد يده الـى جيبـه الـداخلي ويخرج صرة صغيرة) وهذه للآنسة فريدة عـن الـشهور التـي درستها في مدرسة الإناث، وعن راتبها الذي كان جاريا وهي في إجازة مرضها..

الأسير: (يتمنع في أخذ الراتب الجاري أثناء مرضها) يكفي نصف هذا المبلغ فاخصم منه النصف.

علي باشا: أنا لا أستطيع أن أرده الى خزينة الدولة بعد أن خـرج منها.. انها عدالتنا التي نعامل بها موظفينا ولا نميزها في هذا!

الشدياق: (ضيق الصدر) كم يظلم هذه الفتـاة يـا علـي باشـا.. توسطني شاب لخطبة ابنته، لا يريد منه الاّ أن يعده بالزواج منها ويقرأ الفاتحة كي يطمئن باله وهو يرفض.. انني أحـاوره منـذ ساعة قبل مجيئك ولكنه مصر على عناده.. يريد أن يقطع نصيب الفتاة، ويحرم الشاب الذي تواله في حبها من أن تكون له زوجـة المستقبل..

الأسير: (بغضب) كفّ عن هذا الحديث يا فارس!

علي باشا: من هو الشاب؟ قد لا يكون كفؤا لها..

الشدياق: كلكم تعرفونه! انه خالد الذي يعتبره إبنـا لـه، ويـشيد بأخلاقه وموهبته.. كأنما الرجال الذين عرفوه لا يتمنون أن يكون لهم صهرا!

ألأسير: (وقد أخذته المفاجأة) أهو خالد الذي كنت تحدثني عنـه؟ ولم يطلب وساطتك ليخطب فريدة؟

الشدياق: لأنه يخشاك ويخشى ردود فعلك فـي أن تقابـل طلبـه بالإعراض، وتعامله كما عامل أهل ليلى مجنونها قيسا في قصص أهل الهوى..

الأسير: ولكن الفتاة مريضة.. انني أظلمه لو علقت مصيره بفتـاة هي تحت رحمة الله.. لا، لا أريدها أن تحمل أعباء الهوى قبل أن تشفى..

الشدياق: ما أدراك أن الهوى لا يشفيها ويعزز إرادة الحياة عندها؟ وما أدراك أنها لا تحمل له في جوانحها الهوى المكبـوت الـذي يضنيها؟..

الأسير: سأذهب اليها وأستشيرها (يتقدم من فريدة فيـشم رائحـة العطر الجوري يفوح منها.. ان ابنته عاشقة تتعذب وتموت بـين يديه وهو لا يدري بلواعج قلبها) يافريدة، ان خالد يخطبك منـي فهل توافقين؟ (ولم تجب فريدة بل أصابها الدوار ووقعت علـى الأرض مغميا عليها)

شهربان: طبعا موافقة! فلا تعنتها بالسؤال يا أبا محمود!

شهربان: (تصحي فريدة، وأمها تعطيها مـن الـشراب المقـوي فتستفيق.. حسن يركض وينادي خالد.. الرجال يـضعون أيـديهم فوق بعضها ويقرؤون الفاتحة! صفير السفينة للركاب.. الأسـير يودع أصحابه.. ينصرف الشدياق الى عمله)

علي باشا: (لخالد) ما رأيك أن أعطيك إجازة شهر ترافق أسـرة الشيخ، وتحتفل بخطبتها أمام الأهل وتفرح قلبها، ثم تعـود الينـا لتصمد لها مهرها اللائق بها؟ (يدس في يده صرة للرحيل) هـذه دين عليك! إلحق بها.. أسرع.. هيا وداعا والى اللقاء!